التشبيه المقلوب دراسة تطبيقية على القرآن الكريم

إعداد

أ / مروان بن زارع السنانى الجهني

مقدمة:

يُعدّ التشبيه المقلوب نوعًا من أنواع التشبيه في اللغة العربية، وقد ذكره البلاغيون في مصنفاتهم، واستشهدوا عليه بآيات كثيرة من القرآن الكريم، وكذلك من الشعر العربي، ويعد التشبيه وسيلة من وسائل التعبير التصويرية، يستمد قوته من الخيال، فكما أن الرسم والتصوير يعتمد على الأصباغ والأحجار التي تؤلف وتصقل لترمز إلى طبيعة جميلة، أو فتنة ساحرة، أو عبقرية نادرة، نجد التشبيه يشاركهما في الإفصاح عن الفكرة، والتعبير عن العاطفة؛ بما فيه من عنصر الخيال الذي يقابل تلك الأصباغ والأحجار[١].

وقبل البدء في الحديث عن التشبيه المقلوب سنعرض تعريف التشبيه لغة واصطلاحًا، وكذلك أركان التشبيه، وأدواته، وأنواعه.

تعريف التشبيه لغةً: التمثيل، وهو مصدر مشتق من مادة شبه، وجاء في لسان العرب: الشَبَه والشِبْه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله. وأشبهت فلانًا، وشابهته، وتشابه الشيئان، واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه، والتشبيه التمثيل[٢].

تعريف التشبيه اصطلاحًا: هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى؛ بأداة من أدوات التشبيه الظاهرة أو المقدرة[٣].

أركان التشبيه: له أربعة أركان:

١- المشبه.

٢- المشبه به.

٣- الأداة.

٤- وجه الشبه.

وقد حصرها البلاغيون في ثلاثة أقسام، وهي: " طرفا التشبيه، والأداة، ووجه الشبه"

أدوات التشبيه: وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- الحروف: وهي الكاف وكأن.

٢- الأسماء: وهي مثل: شبه، ومماثل، ومشابه، وشبيه، ومثيل، وما يرادفها.

---

[١] البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص١٠٦، دار المعارف، ط١٩٨٢/٢م.

[٢] ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ٧٦٦/٢.

[٣] علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.

٣- الأفعال: ومنها: يشبه، ويماثل، ويحاكي، ويشابه، وغير ذلك من الأفعال المشتقة من الأسماء التي تعتبر من أدوات التشبيه[٤].

أنواع التشبيه: وله خمسة أنواع أساسية ذكرها البلاغيون وهي:

١- التشبيه البليغ: وهو ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

٢- التشبيه المفصل: هو ما ذكر فيه وجه الشبه.

٣- التشبيه المجمل: هو ما حذف منه وجه الشبه.

٤- التشبيه المقلوب: وهو ما جعل المشبه به مشبهًا والمشبه مشبهًا به.

٥- التشبيه التمثيلي (المركب): وهو ما وجهه منتزع من متعدد أمرين أو عدة أمور[٥].

وسيتناول الباحث من هذه الأنواع التشبيه المقلوب.

تعريفه التشبيه المقلوب:

ويطلق عليه اسم التشبيه المعكوس، وهو جعل المشبه به مشبهًا، والمشبه مشبهًا به، أو جعل الفرع أصلًا والأصل فرًعا. وذلك لادعاء أن المشبه به أتم وأكمل في صورة وجه الشبه من المشبه، وهذا على سبيل المبالغة، كما عرفه ابن جني بقوله: " هذا فصل من فصول العربية طريق نجده في معاني العرب، ولا تكاد تجد شيئًا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة، وقد سماه ابن جني[٦] غلبة الفروع على الأصول[٧]. كقول الشاعر:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

حيث جعل الصباح وهو الأصل في الضياء مشبهًا، وجعل وجه الخليفة أصلًا يقاس عليه، فالأصل في التشبيه وجه الممدوح بضوء خيوط الصباح، لكن الشاعر قصد المبالغة في وصف ممدوحه، فلجأ إلى قلب التشبيه، فكان غرة الصباح بإشراقتها كوجه الخليفة.

ومنه قوله تعالى: (إنما البيع مثل الربا) (البقرة: ٢٧٥). فجعل مستحلو الربا البيع فرعًا، والربا أصلًا، وجاءت هذه المخالفة منهم لجعلهم الربا في الحل أقوى حالًا من البيع وأعرف به. وذلك لأن الغرض عندهم هو الربح، وهو أثبت وجودًا في الربا منه في البيع.

---

[٤] ينظر: علوم البلاغة، للمراغي.

[٥] البلاغة الواضحة، علي الجرمي ومصطفى أمين، ص٢٢، مصر، دار المعارف، ط١٩٥٧/٢م.

[٦] سبقت ترجمته.

[٧] الخصائص، لابن جني، ٣٠٨/١.

ومنه قوله تعالى: (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم أفنجعل المسلمين كالمجرمين)(القلم:٣٤،٣٥). وأصل الكلام: أفنجعل المجرمين كالمسلمين، ولكنه قلب مسايرة لاعتقادهم أنهم أفضل من المسلمين. وقوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(النحل: ١٧). فإن مقتضى الظاهر عكس ما هو موجود، لأن الخطاب للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله – سبحانه وتعالى- فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فجاءت هذه المخالفة لمبالغتهم في عبادتها، وغلوهم فيها حتى جعلوا الفرع أصلًا والأصل فرعًا، ولذلك جاء الاستفهام إنكاريًا في الآية، وقوله تعالى: (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى)(آل عمران: ٣٦). وأصل الكلام (وليس الأنثى كالذكر) فإن المعنى ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وضعت، لأن الأنثى أفضل منه[٨].

وقوله تعالى: (يا نساء النبي لست كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه كرض وقلن قولا معروفًا)(الأحزاب: ٣٢). وأصل الكلام: ليس أحد من النساء مثلكن ما دمتن على ما أنتن عليه من التقوى؛ لأن نساء النبي في مكان القدوة لسائر النساء.

ومنه قوله تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)(الجاثية: ٢٣). عبر بقوله اتخذ إلهه هواه بدلًا من قوله: اتخذ هواه إلهه، وقد جعل هواه معبوده يطيعه في كل أمر، كما يطيع العابد معبوده.

وقد أكثر الشعراء من هذا النوع في شعرهم، كقول الشاعر:

أخذت محاسن كل ما ضننت محاسنه بحسنه
كاد الغزال بكونها لولا الشوى ونشوز قرنه

فكاد الغزال يشبهها لو لم تكن فيه هذه العيوب.

ومنه قول الشاعر:

الراح مثل الماء في كاساتها والماء مثل الراح في الغدران

فقد شبه الراح بالماء في كاساتها، وشبه الماء بالراح في الغدران على سبيل القلب، وأصل القول: الماء مثل الراح في الكاسات، والراح مثل الماء في الغدران.

[٨] ينظر: شروح التلخيص، للتفتازاني، ٤٠٨/٣، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، بدون: ت/ط.

وقد اعتبر الإمام عبد القاهر الجرجاني[٩] التشبيه المقلوب من المبالغة، وأظهر لنا هذا الكلام إثر تعقيبه على قول الشاعر:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فقال: واعلم أن هذا وإن كان في الظاهر يشبه قولهم لا أدري أوجهه أنور أم الصبح؟ وغرته أضوأ أم البدر، أو نور الشمس مسروق من جبينه، ونحو ذلك من وجوه المبالغة؛ فإن في الأول خلابة وشيئًا من السحر ليس في الثاني، وهو: أنه يستنكر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة، ويوهم أنه احتشد له واجتهد في تشبيه يفخم به أمره، فيوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها؛ لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه لا يشفق من خلاف مخالف وتهكم متهكم.. والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد، كان لها نوع من السرور عجيب، فكانت النعمة التي لا تكدرها المنة، وكالغنيمة التي لا تحتسب [١٠].

وقد سماه ابن الأثير: الطرد أو العكس، وهو أن يجعل المشبه به مشبهًا، والمشبه مشبَّها به [١١].

وأشار بعض الأعراب إلى التشبيه المقلوب إشارة خفية في عبارة ذكرها الأصمعي[١٢] عنه، قال: " سمعت أعرابيًا يقول: إنكم معاشر أهل الحضر لتخطئون المعنى، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول: كأنه أسد، ويصف المرأة بالحس فيقول: كأنها الشمس، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟ " [١٣].

وكان قصد الأعرابي أن يشبه الأسد بالرجل، والشمس بالمرأة.

ويرى الباحث أن التشبيه المقلوب هو نوع من أنواع التشبيه المعروفة عند البلاغيين، والأصل أن يجري على السنن المعروفة عند العرب والذي يلتمس المشبه به مما هو معروف ومألوف في حياتهم. كذلك اطردت العادة في البلاغة عند العرب على تشبيه الأدنى بالأعلى، فإذا جاء الأمر على خلاف ذلك، فهو التشبيه المعكوس أو المقلوب؛ طلبًا للمبالغة بادعاء أن وجه

---

[٩] سبقت ترجمته.

[١٠] ينظر: أسرار البلاغة، للجرجاني، ص ١٩٥.

[١١] ينظر: المثل السائر، لابن الأثير، ١٦٤/٢، تحقيق: د. أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون: ت/ط.

[١٢] سبقت ترجمته.

[١٣] نهاية الأرب، للنويري، ١٨٥/٣، مطبوعات وزارة الثقافة.

الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به، والواقع أن هذا الضرب من التشبيه حسن الموقع، لطيف المأخذ، وهو مظهر من مظاهر الافتتان والتعبير.

الدراسة التطبيقية

المسألة الأولى:

قوله تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [سورة البقرة:٢٧٥].

المعنى بالتشبيه المقلوب:

إنما الربا مثل البيع.

القائلون بالتشبيه المقلوب:

صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:

محيي الدين درويش:

قال: "التشبيه المقلوب: في قولهم: «إنما البيع مثل الربا» وهم يريدون القول: بأن الربا مثل البيع".(١٤)

الصابوني:

قال: "{إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا} فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب)...والأصل في الآية أن يقال: الربا مثل البيع".(١٥)

الزحيلي:

قال: "الأصل أن يقال: الرّبا مثل البيع، ولكنهم قلبوا التّشبيه...على سبيل التشبيه المقلوب".(١٦)

وكذا قال الهرري.(١٧)

---

(١٤) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٤٢٩/١).

(١٥) صفوة التفاسير للصابوني (١٥٩/١).

(١٦) التفسير المنير للزحيلي (٨٣/٣).

وذهب إلى القول بوقوع التشبيه المقلوب بالمعنى: الزمخشري.
قال: " فإن قلت: هلّا قيل إنما الربا مثل البيع؛ لأنّ الكلام في الربا لا في البيع؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلًا وقانونا في الحل، حتى شبهوا به البيع".(١٨)
وتبعه: النسفي، والسمين الحلبي، والنيسابوري، والقاسمي.(١٩)
وكذلك صرح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية: الزركشي.

قال: "...فَيُقْلَبُ التَّشْبِيهُ كقوله تَعَالَى: {قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مثل الربا} كَانَ الْأَصْلُ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ".(٢٠)
وتبعه تصريحًا به: السيوطي.(٢١)
دليلهم :
القول بالتشبيه المقلوب في وصف هذه الآية فيه مبالغة في بيان ضلال آكلي الربا، الذين بلغ اعتقادهم في حلّ الربا أن جعلوه أصلًا يُقاس عليه، فشبهوا به البيع. وهذا من عظيم البلاغة والبيان، أن آكل الحرام من كثرة اعتياده عليه قد يراه حلالًا وأصلًا، ويرى الحلال تابعًا له أو حلال مثله.
وكذلك بيان أن الداعي من البيع والربا هو المال والربح، وهذا أظهر وأوضح في الربا، فينبغي -على حسب اعتقادهم- أن يكون أحق بالحل والإباحة.
وهذا هي حقيقة التشبيه المقلوب؛ أن يُقلب التشبيه؛ لأن وجه الشبه في المشبه به أوضح وأقوى منها في المُشبّه.
المسألة الثانية:
قوله تعالى:
إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ

---

(١٧) تفسير حدائق الروح والريحان للهرري (١١٩/٤).
(١٨) الكشاف للزمخشري (٣٢٢/١-٣٢١).
(١٩) مدارك التنزيل للنسفي (٢٢٤/١)، الدر المصون للسمين الحلبي (٦٣٣/٢)، غرائب القرآن للنيسابوري (٦٣/٢)، محاسن التأويل للقاسمي (٢٢٥/٢).
(٢٠) البرهان للزركشي (٤٢٧/٣).
(٢١) الإتقان للسيوطي (١٤٧/٣).

قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [سورة يونس:٢٤].
قوله تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا [سورة الكهف:٤٥].

المعنى بالتشبيه المقلوب:
فاختلط الماء بنبات الأرض.
القائلون بالتشبيه المقلوب:
صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:
الآلوسي:
قال: "ففي الكلام قلب مقبول".(٢٢)
محمود صافي:
قال: "في هذه الآية تشبيه تمثيلي مقلوب...وهو تشبيه مقلوب، لأنه كان الظاهر في هذا المعنى أن يقول: فاختلط بنبات الأرض".(٢٣)
وحكى القول بمعنى التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:
الزجاج، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود.(٢٤)
قال الزجّاج: "تأويله أنه نجع في النبات حتى خالطه".(٢٥)
قال الرازي: "فَاخْتَلَطَ ذَلِكَ الْمَاءُ بِالنَّبَاتِ، وَاخْتَلَطَ ذَلِكَ النَّبَاتُ بِالْمَاءِ حَتَّى رَوِيَ وَرَفَّ رَفِيفًا".(٢٦)
دليلهم :

---

(٢٢) روح المعاني للألوسي (٢٧١/٨).
(٢٣) الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (١٩٨/١٥).
(٢٤) معاني القرآن للزجاج (٢٩١/٣)، مفاتيح الغيب للرازي (٤٦٧/٢١)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٨٣/٣)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٢٥/٥).
(٢٥) معاني القرآن للزجاج (٢٩١/٣).
ونجع الماء: أي دخل في النبات فاختلط به.
(٢٦) مفاتيح الغيب (٤٦٧/٢١).

١-معنى التشبيه المقلوب يفيد المبالغة في كثرة الماء؛ حتى كأنه الأصل الكثير، حيث أن الباء -على معنى القلب- تدخل على النبات؛ فيكون هو الأقل.
٢-أَنَّ كُلَّ شيئين اختلطا وتداخلا، فيصحّ إسناد الاختلاط إلى أي واحد منهما.
فيصح أن نقول: اختلط الماء بالنبات، ويصح كذلك: اختلط النبات بالماء.

المسألة الثالثة:
قوله تعالى: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [سورة النحل:١٧].
المعنى مع القول بالقلب:
أفمنْ لا يخلق كمن يخلق.
القائلون بالقلب:
صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:
شهاب الدين الخفاجي:
قال: "...لأنّ المقصود إلزام عبدة الأصنام، وسموها آلهة تشبيهًا بالله، وهم جعلوا غير الخالق مثله؛ فكان حقه: أفمن لا يخلق كمن يخلق...فهو من التشبيه المقلوب".(٢٧)
محيي الدين درويش:
في حديثه عن البلاغة في الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية، قال: "التشبيه المقلوب: وذلك في قوله تعالى «أفمن يخلق كمن لا يخلق»".(٢٨)
الهرري:
قال: "وقد تضمنت هذه الآيات -[السابقة واللاحقة]- ضروبًا من البلاغة، وأنواعًا من الفصاحة والبيان والبديع: ومنها: التشبيه المقلوب في قوله: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} لأن حق العبارة أن يقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق".(٢٩)
وكذلك صرّح بوقوع التشبيه المقلوب:
الزركشي، والسيوطي.

(٢٧) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المعروفة بعناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، (٣١٩/٥).
(٢) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٢٨٠/٥).

(٢٩)تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي، (١٩٠/١٥).

قال الزركشي: " وَمِنْهُ-أي:أحوال أنْ يُقلب التشبيه- قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} فَإِنَّ الظَّاهِرَ الْعَكْسُ لِأَنَّ الخطاب لعبدة الأوثان".(٣٠)
وقال السيوطي: " الْأَصْلُ دُخُولُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ عَلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَقَدْ تَدْخُلُ عَلَى الْمُشَبَّهِ إمَّا لِقَصْدِ الْمُبَالَغَةِ فيقلب التشبيه، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} فَإِنَّ الظَّاهِرَ الْعَكْسُ لِأَنَّ الْخِطَابَ لِعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ".(٣١)
دليلهم :
١-هذا النوع من أنواع التشبيه هو أقواها وأعلاها، حيث يُجعل المشبّه مكان المشبّه به، بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر.
فالتشبيه المقلوب في هذه الآية، جاء على أن الله خاطب عبّاد الأصنام بما يفكرون به، وبما هو لسان حالهم ومقالهم: أن الباطل وانتكاس الفطرة والعقل؛ صار عندهم مُقَدّمًا على الحق والفطرة السليمة والعقل السّويْ، فقد جعلوا من لا يخلق كمن يخلق.

المسألة الرابعة:
قوله تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا [سورة الأحزاب:٣٢].

المعنى بالتشبيه المقلوب:
ليس أحد مِن النساء مثلكنَّ.

القائلون بالتشبيه المقلوب:
صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:
محمود صافي:
قال: "التشبيه المقلوب: في قوله تعالى {يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ}، فالتشبيه على القلب، والأصل ليس أحد من النساء مثلكن".(٣٢)
الحجة:

(٣٠) البرهان للزركشي (٤٢٨/٣).
(٣١) الإتقان للسيوطي (١٤٧/٣).
(٣٢) الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (١٦١/٢٢).

١-أن المعنى على التشبيه المقلوب، فيه مبالغة في تشريف نساء النبي صلى الله عليه وسلم، كون المعنى بذلك يزدهنَّ علوًّا ورفعة عن نساء المسلمين، ولا يتأتّى هذا المعنى إلا في جعل المشبه مشبهًا به، وهذا هو التشبيه المقلوب، وما يضيفه من دلالة وصورة جمالية لبلاغة القرآن العظيم.

المسألة الخامسة:
قوله تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [سورة ص:٢٨].

المعنى بالتشبيه المقلوب:
أم نجعل المفسدين في الأرض كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات أم نجعل الفجار كالمتقين.

القائلون بالتشبيه المقلوب:
صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:
محمود صافي:
قال: "التشبيه المقلوب: في قوله تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}، وأصل الكلام: أنجعل المفسدين كالمصلحين والفجار كالمتقين".(٣٣)
وكذلك صرّح بوقوع التشبيه المقلوب:
الزركشي:
قال: "-ومن أحوال قلب التشبيه-قوله: {أم نجعل المتقين كالفجار}".(٣٤)
دليلهم:
١-المعنى بالتشبيه المقلوب فيه مبالغة ومسايرة لظن الكافرين؛ بأنهم أرفع مكانة من المؤمنين المتقين في الآخرة، كما يعتقدون ذلك في الدنيا، فوقع التشبيه على القلب بتشبيه الأعلى بالأدنى، والأصل تشبيه الأدنى بالأعلى.

(٣٣) الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (١٧٦/٢٣).
(٣٤) البرهان للزركشي (٤٢٨/٣).

٢- لَمَّا قِيلَ قَبْلَ الْآيَةِ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِك ظن الذين كفروا} أَيْ: يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَمْرَ يُهْمَلُ، وَأَنْ لَا حشر ولا نشر، أم لم يَظُنُّوا ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَظُنُّونَ أَنَّا نَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ كالمجرمين والمتقين كالفجار.(٣٥)

المسألة السادسة:
قوله تعالى: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ [سورة القلم:٣٥].

المعنى بالتشبيه المقلوب:
أفنجعل المجرمين كالمسلمين.

القائلون بالتشبيه المقلوب:
صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية من المفسرين:
القنوجي:
قال: "كأن العبارة مقلوبة، والأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين".(٣٦)
محمود صافي:
قال: "التشبيه المقلوب: في قوله تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِين}".(٣٧)
الصابوني:
قال: " التشبيه المقلوب في{أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين} لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين".(٣٨)
وتبعهم بالتصريح به: الزحيلي، والهرري.(٣٩)
وكذلك صرّح بوقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية:
الزركشي:

(٣٥) لمصدر السابق.
(٣٦) فتح البيان للقنوجي (٢٧٠/١٤).
(٣٧) لجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٤٦/٢٩).
(٣٨) صفوة التفاسير لمحمد الصابوني (٤٠٧/٣).
(٣٩) لتفسير المنير للزحيلي (٦٦/٢٩)، حدائق الروح للهرري (١٣٧/٣٠).

قال: "وَمِنْهَا [أي: أحوال دخول أداة الشبه] قَصْدُ الْمُبَالَغَةِ، فَيُقْلَبُ التَّشْبِيهُ ومنه قوله تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين}.(٤٠)

دليلهم :

١-البلاغة المتحققة في التشبيه المقلوب، وهو جعل الْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ مُشَبَّهًا، ووقع هنا القلب في التشبيه مسايرة لاعتقاد الكفار أنهم أفضل وأعلى من المسلمين.

٢-أن في التشبيه المقلوب مراعاة لمقتضى السبب.

وسبب نزول الآية ذكره من المفسرين بصيغة التمريض: ابن عطية، والثعالبي.

قال ابن عطية: "ثم أخبر تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ}، فروي أنه لما نزلت هذه قالت قريش: إن كانت ثَم جنات نعيم، فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}".(٤١)

فيقول ابن عرفة: "لو روعي في الآية مقتضى السبب لقيل: {أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين}.

لأنه على ذلك كان ينبغي أن يقال: أفنجعل المجرمين كالمسلمين، لأنهم أثبتوا للمسلمين فيها حظًا، وادعوا أن لهم مثله وأكبر منه".(٤٢)

المانعون من القول بالتشبيه المقلوب:

لم يصرّح أحد من المفسرين بالمنع من وقوع التشبيه المقلوب في هذه الآية.

لكن ذكر ابن عرفة في تفسيره، توجيهًا بالنظر لسياق الآيات السابقة لهذه الآية، بيّن قوة المعنى بالنظم وبلا تشبيه مقلوب.

قال: "...وإنما رُوعي فيها مناسبتها لما قبلها، لأنه لما قال في آية المجرمين (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ)، فأتى فيه مطلقًا غير محصور فيهم، وعقبه بقوله تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)، أتى بهذا التشبيه نفيا لما قد يتوهمه أحد من

(٤٠) البرهان للزركشي (٣/٤٢٨-٤٢٦).

(٤١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٣٥١)، وتفسير الثعالبي (٥/٤٧٠).
ولم أجده في أي من كتب التفسير المسندة.

(٤٢) ينظر: تفسير ابن عرفة (٤/٢٧٣-٢٧٢).

أن ذلك العذاب قد ينال المتقين بعضه، وإن قلَّ؛ أي أفنجعل المسلمين في العذاب كالمجرمين".(٤٣)

الخاتمة

الحمد لله في المبدأ والختام، والصلاة والسلام على محمد سيد الأنام، وعلى آله وصحبه السادة الأعلام، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيام، وبعد:

فإن للعيش مع كتاب الله، والغوص في كتب التفسير ودراستها، لذة وسعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، فقد لبثت مدة في دراسة كتب التفسير، والتنقيب عما له صلة بالبحث، وسبر أقوال المفسرين ودراستها في هذا النوع السامق من التشبيه، وبيان مأخذ كل قول، فانتهيتُ إلى أهم النتائج التالية:

١-التشبيه المقلوب يدخل في علم البيان، وهو فن لطيف رفيع.

(٤٣) المصدر السابق.